

الفصل السابع

القيم الإنسانية

كما يقوم المجتمع المسلم على (العقائد) التي تحدد له فلسفته الكلية عن المبدأ ، والمصير ، والغاية ، وتجب الإنسان عن أسئلته القديمة الجديدة : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم ؟ . . وبها ظهر أنه (مجتمع موحد) لا يشرك بالله شيئاً .

ويقوم على الشعائر التي تجسد صلته بالله تعالى في أعمال ظاهرة ، وبها ظهر أنه (مجتمع متعبد) أهم وظائفه عبادة الله تعالى .

ويقوم على الأفكار والمفاهيم الواضحة التي تجعله يقوم الأعمال والمواقف والأشخاص والمذاهب من خلال موازينه الخاصة ، التي لا تنسبه ليمين أو يسار فهو (مجتمع فكري) متميز .

ويقوم على أخلاق وفضائل يؤمن بها إيمانه بدينه وشريعته ، فهي جزء منه ، باعتبارها أوامر ونواهي صادرة إليه من ربه سبحانه ، فهو (مجتمع أخلاقي) .

ويقوم ذلك المجتمع على آداب وتقاليد خاصة تجعله نسيج وحده ، غير مقلد لغيره ، ممن بعد عنه زماناً ، أو بعد عنه مكاناً .

كما يقوم المجتمع على ذلك كله ، يقوم كذلك على (القيم الإنسانية) الرفيعة ، التي تتطلع إليها البشرية الراقية .

وأعني بالقيم الإنسانية تلك التي تقوم على احترام كرامة الإنسان وحرية وحرماته ، وحقوقه ، وصيانة دمه وعرضه ، وماله وعقله ونسله ، بوصفه إنساناً ، وعضواً في مجتمع .

ونركز هنا على مجموعة من القيم الأساسية وهي : العلم ، والعمل ، والحرية ، والشورى ، والعدل ، والإخاء .

● العلم :

العلم قيمة من القيم العليا ، التي جاء بها الإسلام وأقام عليها حياة الإنسان المعنوية والمادية ، الأخروية والدنيوية ، وجعله طريق الإيمان وداعي العمل ، وهو المرشح الأول للخلافة في الأرض ، وبه فضل آدم أبو البشر على الملائكة ، الذين تطلعوا إلى منصب الخلافة ؛ لأنهم أعبد الله من الذين توقعوا منهم أن يفسدوا في الأرض ويسفكوا الدماء ، فقال تعالى ردًا عليهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣) .

إن الإسلام هو دين العلم ، والقرآن كتاب العلم ، وأول ما نزل منه على الرسول الكريم ﷺ : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: ١) والقراءة هي باب العلم .
والقرآن : ﴿ كِتَابٌ فَضِّلْتَ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (فصلت: ٣) .
والقرآن يجعل العلم أساس التفاضل بين الناس : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩) .

كما يجعل أهل العلم هم الشهداء لله تعالى بالتوحيد ، مع الملائكة : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (آل عمران: ١٨) .
وأهل العلم كذلك هم المؤهلون لخشية الله تعالى وتقواه ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٨) ، فلا يخشى الله إلا من عرفه ، وإنما يعرف الله بآثار قدرته ورحمته في خلقه ، ولهذا جاءت هذه الجملة في سياق الحديث عن آيات الله تعالى في الكون : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ^(١) وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ^(٢) * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ^(٣) إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٧-٢٨) .

(١) فيه إشارة إلى علم النبات والزراعة .

(٢) فيه إشارة إلى علم الجيولوجيا .

(٣) فيه إشارة إلى سائر علوم الحياة والإنسان وما يتعلق بهما .

والقرآن أعظم كتاب ينشئ (العقلية العلمية) التي تنبذ الخرافة ، وتتمرد على التقليد الأعمى ، للأجداد والآباء أو للسادة والكبراء ، أو للعوام والدهماء ، وترفض الظنون والأهواء في مقام البحث عن الحقائق والعقائد اليقينية ، ولا تقبل دعوى إلا ببرهان قاطع ، من المشاهدة المؤكدة في الحسيات ، ومن المنطق السليم في العقلیات ، ومن النقل الموثق في المرويات .

ويعتبر القرآن النظر فريضة ، والتفكير عبادة ، والبحث عن الحقيقة قربة ، واستخدام أدوات المعرفة شكراً لنعم الله ، وتعطيها سبيلاً إلى جهنم .

اقرأ هذه الآيات في القرآن ، وهي غيض من فيض :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠) .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ (٧) رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٦٧-٦٨) .

﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٨) .

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾

(النجم: ٢٨) .

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾

(النجم: ٢٣) .

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (ص: ٢٦) .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨) .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦) .

﴿ نَبِيُّنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٣) .

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام: ١٤٨) .

﴿ أَتُتَوَى بِكُتُبٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(الأحقاف: ٤) .

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ١١١) .

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾

(الأعراف: ١٨٥) .

﴿ قُلِ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرْدِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾

(سبا: ٤٦) .

وينوه القرآن في كثير من آياته بـ ﴿أولي الألباب﴾ ، و ﴿أولي النهي﴾ ، و ﴿أولي الأبصار﴾ . والمراد بالبصر هنا : العقلي لا الحسي .

وبيّن أن في كتابه المسطور (القرآن) ، وكتابه المنظور (الكون) آيات ﴿لقوم يتفكرون﴾ ، و ﴿لقوم يعقلون﴾ ، و ﴿لقوم يعلمون﴾ .

وكم فيه من فواصل تنبه العقول الغافلة مثل : ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ ، ﴿أفلا تتفكرون﴾ ؟ .

وعلماء الإسلام متفقون على أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأن منه ما هو فرض عَيْن ، ومنه ما هو فرض كفاية .

ففرض العَيْن ما لا بدّ للمسلم منه في فهم دينه عقيدة وعبادة وسلوكاً ، وفي عمل ديناه ، حتى يكفي نفسه ، وأسرته ، ويسهم في كفاية أمته .

وفرض الكفاية كل ما به قوام الدين والدنيا للجماعة المسلمة ، من علوم الدين وعلوم الدنيا .

ولهذا قرر علماء المسلمين أن تعلم الطب والهندسة وغيرهما من فروع العلم ، وكذلك تعلم الصناعات التي لا تقوم حياة الناس إلا بها ، فرض كفاية على الأمة ،

فإذا وُجِدَ فيها عدد كاف من العلماء والخبراء والفنيين في كل مجال ، بحيث تُسَدَّ به الثغرات ، وتُلَبَّى الحاجات ، فقد أدت الأمة واجبها ، وسقط الإثم والحرَج عنها ، وإذا قصرت الأمة في جانب من هذه الجوانب الدنيوية ، وغدت عالية على غيرها كلياً أو جزئياً ، فالأمة كلها آثمة ، وبخاصة أولو الأمر فيها .

وعلى ضوء هذه المعاني قامت حضارة إسلامية رفيعة البنيان ، متينة الأركان ، جامعة بين العلم والإيمان .

ولم يُعرف في هذه الحضارة ما عرف في أمم أخرى من الصراع بين العلم والدين ، أو بين الحكمة والشريعة ، أو بين العقل والنقل . بل كان كثير من علماء الشرع أطباء ورياضيين ، وكيميائيين وفلكيين وغيرهم ، (مثل : ابن رشد ، والفخر الرازي ، والخوارزمي ، وابن النفيس ، وابن خلدون وغيرهم) .

وقد بين الإمام محمد عبده أن أصول الإسلام تتفق كل الاتفاق مع العلم والمدنية ، وأقام على ذلك البراهين الناصعة من نصوص الدين ومن تاريخ المسلمين ، وذلك في كتابه القيم (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) .

● العمل :

وهو ثمرة العلم ، ولهذا قيل في تراثنا : علم بلا عمل ، كشجر بلا ثمر ، أو سحاب بلا مطر .

وهو أيضاً ثمرة الإيمان الحق ، إذ لا يتصور إيمان بلا عمل .

ومهما يختلف علماء الكلام في اعتبار العلم جزءاً من حقيقة الإيمان ، أو شرطاً له ، أو أثراً له ، فما لا ريب فيه أن الإيمان الصادق لا بد أن يثمر عملاً . ولهذا قرن القرآن بين الإيمان والعمل في عشرات من آياته ، ولهذا قال السلف : الإيمان ما وقر في القلب ، وصدقه العمل^(١) .

(١) من قول الحسن ، رواه ابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣٠٩٨٨) ، وأحمد في الزهد (٢٦٧) . وصححه ابن القيم في تهذيب السنن (٣٤٦/٢) ، عن الحسن البصري .

والعمل المطلوب هو : بذل الجهد الواعي لتحقيق مقاصد الشارع من الإنسان فوق هذه الأرض .

وهذه المقاصد - كما أشار إليها القرآن - تتحدد في ثلاث ذكرها الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) وهي :

١- العبادة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦) .

٢- الخلافة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) . .
يعني آدم وذريته .

٣- العمارة ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(هود: ٦١) .

وهذه الثلاثة متداخلة ومتلازمة ، فالعمارة - عند أدائها بقصد ونية - جزء من العبادة ، وقيام بحق الخلافة . والعبادة بمعناها الواسع تشمل الخلافة والعمارة ، ولاخلافة بغير عبادة وعمارة .

والعمل المنشود في الإسلام هو (عمل الصالحات) ، والصالحات : تعبير قرآني جامع ، يشمل كل ما يصلح به الدين والدنيا ، ويصلح به الفرد والمجتمع . فهو يضم العبادات والمعاملات ، أو عمل المعاش والمعاد ، كما يعبر علماؤنا رحمهم الله .

ولقد بين القرآن أن الله تعالى خلق السماوات والأرض ، وخلق الموت والحياة ، وجعل ما على الأرض زينة لها ، لهدف واضح حدده بقوله سبحانه : ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود: ٧) ، (الملك: ٢) ، وقوله : ﴿ لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(الكهف: ٧) .

ومعنى هذا : أن الخالق جلَّ شأنه لا يريد من الناس أي عمل ، ولا مجرد العمل الحسن ، بل يريد منهم (العمل الأحسن) .

فالسباق بينهم ليس بين العمل السيئ والحسن، بل بين العمل الحسن والأحسن .
 ولا غرو أن وجدنا من العبارات القرآنية المأنوسة عبارة : (التي هي أحسن) ،
 فالمسلم يجادل ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥) ، ويدفع ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
 (المؤمنون: ٩٦) ، ويستثمر مال اليتيم ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء: ٣٤) ، ويتبع
 أحسن ما أنزل إليه من ربه : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
 (الزمر: ٥٥) .

فهو يرنو دائماً إلى ما هو أحسن ، وليس إلى مجرد الحسن .
 والعمل الاقتصادي بكل فروعه وأنواعه من أفضل القربات إلى الله ، إذا صحّت
 فيه النية ، وأُدي باتقان ، والتزمت فيه حدود الله . وخصوصاً العمل الإنتاجي ، من
 زراعة وصناعة ، وحديد وتعدين .

وقد توارث العرب من قديم احتقار العمل اليدوي والحرفي ، وكان أحدهم
 يؤثر أن يذهب إلى الأمير أو شيخ القبيلة ، يسأله المعونة ، على أن يبذل جهداً
 يكفل له عيشاً يلائمه ، فينبّ لهم الرسول الكريم ﷺ أن أي عمل لكسب العيش -
 وإن قلّ دخله ، وكثر جهده - خير وأكرم من سؤال الناس ، أعطوه أو منعه .
 يقول عليه الصلاة والسلام : «لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره ، فيأتي بحزمة
 من الحطب فيبيعهها ، فيكف الله بها وجهه ، خير من أن يسأل الناس ، أعطوه
 أو منعه»^(١) .

وفي الحث على الاحتراف يقول : «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل
 من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»^(٢) .
 وفي الحث على الزرع والغرس يقول : «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع
 زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة»^(٣) .

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٧١) ، عن الزبير بن العوام .

(٢) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢) ، عن المقدم بن معدي كرب .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠) ، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣) ، عن أنس .

ومن أروع التوجيهات النبوية في بيان قيمة العمل : الحديث الذي يقول : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تقوم (أي الساعة) حتى يغرسها فليغرسها »^(١).

والفسيلة : النخلة الصغيرة ، أي ما نسميه (الشتلة) .

ولماذا يغرسها والساعة قائمة ، وهو لن ينتفع بها ، ولا أحد من بعده؟! إنه دليل على أن العمل مطلوب لذاته ، وأن على المسلم أن يظل عاملاً منتجاً ، حتى تنفذ آخر نقطة زيت في سراج الحياة!

إن العمل عبادة وقربة ، أكل الناس من ثمره أو لم يأكلوا . ولو وعى المسلمون هذه التعليمات لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض ، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . وكانت مجتمعاتهم في طليعة مجتمعات العالم إنتاجاً وثراءً ، ولم يعيشوا كلاً على غيرهم من الأمم ، حتى إنهم لا يكفون أنفسهم من القوات اليومية الذي به عيشهم وحياتهم ، وبلادهم بلاد زراعية ، ولا من السلاح الذي يحتاجون إليه في حماية حرمانهم وأرضهم وعرضهم ، فلو كف الآخرون أيديهم عنهم لهلكوا مادياً من الجوع ، وهلكوا معنوياً من الذل .

● الحرية :

ومن القيم الإنسانية التي عظم أمرها الإسلام : الحرية ، التي ترفع عن الإنسان كل ألوان الضغط والقهر والإكراه والإذلال . وتجعله كما أراد الله له : سيداً في الكون ، عبداً لله وحده .

وتشمل هذه الحرية : الحرية الدينية ، والحرية الفكرية ، والحرية السياسية ، والحرية المدنية ، وكل الحريات الحقيقية .

(١) رواه أحمد (١٢٩٠٢) ، وقال مخرجه : إسناده صحيح على شرط مسلم . والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) ، وصححه الضياء في المختارة (٢٧١٣) .

ونعني بالحرية الدينية : حرية الاعتقاد ، وحرية ممارسة الشعائر ، فلا يقبل الإسلام بحال أن يُكْرَه أحدٌ على ترك دين رضيه واعتنقه ، أو يُجبر على اعتناق دين لا يرضاه . ونصوص القرآن الكريم صريحة في ذلك كل الصراحة ، ففي القرآن المكي يقول تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩) ؟ ، وفي القرآن المدني يقول سبحانه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .

ومن دخل في ذمة المسلمين من أصحاب الأديان الأخرى ، فقد غدا يحمل (جنسية دار الإسلام) ، له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم في الجملة ، إلا ما اقتضته طبيعة التميز الديني ، فلا يفرض عليه كل ما يفرض على المسلمين ، ولا يحرم عليه كل ما حرم على المسلمين .

ومن الناس مَنْ كتب في عصرنا يقول : إن التراث العربي والإسلامي لم يعرف الحرية بالمفهوم الحديث والمعاصر ، الذي نقل إلينا من الغرب ، بعد الثورة الفرنسية . إنما يعرف الحرية بمعنى (عدم الرق) فقط ، فالحر مَنْ ليس عبداً ، والحرية مقابل الرق والعبودية .

فنحن حين نؤمن بالحرية ، أو ننادي بالحرية عالة على فرنسا ، فقبلها لم نكن نعرف عنها شيئاً!!

وإني لأعجب أن يقول هذا أناس يزعمون - ويزعم لهم - أنهم مثقفون وعلميون ، وباحثون موضوعيون !

ونظراً لأن بعض الناس قد يغره هذا الكلام المزوق ، وجب علينا أن نضع أمامهم بعض الحقائق تبصرة وتذكرة :

أولاً : لا ننكر أن الأصل والحقيقة اللغوية في معنى الحرية ، هو ما يقابل الرق الذي يعني تحكم الإنسان في آخر وتسلط عليه . والحرية تعني التخلص من هذا التحكم والتسلط ، وفكاك رقبتة منه . ولكن ليس هذا هو المعنى الوحيد للكلمة .

لقد اتسعت الكلمة لتشمل تخلص الإنسان من كل تسلط عليه بغير حق ، من سُلطة جائرة ، أو قوة قاهرة .

وفي هذا جاءت كلمة عمر بن الخطاب لواليه على مصر عمرو بن العاص ، وهي كلمة محفورة في ذاكرة التاريخ : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً^(١) ؟!

وهي كلمة أصبحت تصدر بها الآن الدساتير ومواثيق حقوق الإنسان .
ويقول عليّ بن أبي طالب في وصيته لابنه : ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً^(٢) .

وقد استعمل كثير من الشعراء كلمة (الحر) بمعنى الإنسان العزيز الكريم ، كقول من قال^(٣) :

العبد يُقْرِع بالعصا والحر تكفيه الملامة
وقال الآخر^(٤) :

والحر من دَانْ إنصافاً

وقال غيره في وصف بعض الحسان العفيفات^(٥) :

حور حرائر ما هممن بريئة كظباء مكة صيدهن حرام
وفي أمثال العرب : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها^(٦) .
وقالوا : الصبر مرّ ، لا يتجرعه إلا حر^(٧) .

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (١٨٣/١) ، وحسن المحاضرة للسيوطي (١٩٣/١) .

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (٤١٩/١) .

(٣) البيت لابن مفزع يهجو عباد بن زياد . الشعر والشعراء لابن قتيبة (٧١/١) .

(٤) البيت لا بن زيدون من قصيدته لولادة بنت المستكفي ، كما في ديوانه (٥/١) .

(٥) المستطرف (٣٥١/٢) ، ونسب في الحماسة البصرية (١٥٢/١) لعروة بن أذينة ، بلفظ :
(بيض نواعم ما هممن . . .) .

(٦) مجمع الأمثال للميداني (٦١٩) ، وجمهرة الأمثال للعسكري (٣٥٩) .

(٧) نثر الدرر للأبي (٣٠٦/١) .

ثم إنَّ عدم وجود لفظ أو مصطلح معيَّن يدل على مفهوم أو مضمون نعرفه الآن : لا يعني بالضرورة عدم وجود هذا المدلول أو المضمون .

فقد يوجد هذ المضمون أو المحتوى تحت لفظ أو مصطلح آخر ، وقد يوجد منشوراً تحت كلمات أو مطلحات أخرى .

فقد لا يجد الباحث في ترائنا كلمة (المساواة) مستخدمة كما نستخدمها نحن الآن .

ولكنه بأدنى بحث يجد مضمونها مبثوثاً منتشراً ، في آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول العظيم ، وفي عبادات الإسلام وشعائره ، من الصلاة والصيام والحج والعمرة ، وفي أحكام الإسلام وعقوباته التي لا تفرّق بين الشريف والوضيع . وفي مبادئ الإسلام التي تحطم الفوارق بين الأجناس والألوان والطبقات ، وتجعل الناس سواسية كأَسنان المشط .

ومثل ذلك : الحرية ، فقد يُعبّر عنها بالكرامة : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾

(الإسراء: ٧٠) .

أو بالعزة : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون: ٨) .

أو بتحريم القهر والنهر : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾

(الضحى: ٩-١٠) .

أو بتحريم الإرهاب والترويع : « لا يحلُّ لمسلم أن يروّع مسلماً »^(١) .

أو بتحريم الضرب والتعذيب : « مَنْ جَرَّدَ ظَهْرَ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ »^(٢) . أو بغير ذلك من العبارات والأساليب .

(١) رواه أحمد (٢٣٠٦٤) ، وقال مخرجه : إسناده صحيح . وأبو داود في الأدب (٥٠٠٤) ،

والبيهقي في الشهادات (٢٠٩٦٦) ، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٤٧) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٧٥٣٦) . وقال المنذري في الترغيب (٣٧٠٦) ، والهيتمي في

المجمع (١٠٥٢١) : إسناده جيد .

وأكثر من ذلك : أن الإسلام يحرض على القتال وإعلان الحرب من أجل تحرير المستضعفين في الأرض من نير الطغاة والمتجبرين . يقول تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٧٥) .

وإذا لم يقدر الناس على مقاومة الطغيان والاستبداد ، فلا أقل من أن يهاجروا من ديارهم ، ولا يقبلوا على أنفسهم الهوان والبقاء تحت نير الظلم والاستعباد . وقد توعد القرآن الكريم بالوعيد الشديد من رضي بهذه الحياة المهينة ، واستسلم لها طائعا ، فلا هو قاوم مع المقاومين ، ولا هو هاجر مع المهاجرين .

يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِيَةَ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِمْلَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ (النساء: ٩٧-٩٩) ^(١) .

على أن الذي يعطي الإسلام حقه من الفهم والتدبر ، يجد أن جوهره هو التوحيد ، فهو روح الوجود الإسلامي . والتوحيد هو الأساس العقلي والفلسفي لتحقيق مبدأ الحرية ، بل لتحقيق مبادئ الحرية والإخاء والمساواة جميعا .

(١) وينبغي أن يعلم أن هذه الآيات الكريمة في شأن المسلمين الذين يقيمون في دار الكفر ، وليست في المسلمين الذين يغزوهم الكفار في دار الإسلام ، فالواجب عليهم أن يتشبثوا بأرضهم وديارهم ، وأن يصبروا على الأذى والاضطهاد ، ولا يفرغوا لهم دار الإسلام ، فيتمكنوا منها ، ويرسخوا فيها ، كما فعل الأسبان بعد طرد المسلمين من الأندلس ، فقد خلصت لهم ، وضاعت على المسلمين ، وكما يريد الصرب أن يفعلوا اليوم بأهل البوسنة والهرسك ، وكما تريد إسرائيل أن تفعل بالفلسطينيين ، فلا يجوز لهم ترك الأرض لهم ، فهي جزء من دار الإسلام ، وإن حكمها الكفار ، كما هو مذهب أبي حنيفة ، وهو الصحيح ، ما دامت متصلة بسائر دار الإسلام .

وكلمة التوحيد - كلمة (لا إله إلا الله) - تعني إسقاط المتألهين والمتجبرين في الأرض ، وإنزالهم من عروش الربوبية المزيفة ، والاستعلاء على الخلق ، إلى ساحة المشاركة للناس جميعاً في العبودية لله ، والبنوة لآدم .

ولهذا كانت رسائل النبي ﷺ إلى قيصر وأمراء النصارى وملوكهم في مصر والحبشة وغيرها مختومة بهذا النداء : ﴿ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤) .

إن أعظم ما دمر حرية البشر ، وأتى على بنيانها من القواعد ، اتخاذ بعض الناس بعضاً أرباباً من دون الله . ولكي يسترد الناس حريتهم وكرامتهم يجب تحطيم هؤلاء الأرباب الأديعاء ، والآلهة المزورين ، خصوصاً في أنفس الذين توهموهم أرباباً حقاً ، وهم مخلوقون مثلهم ، لا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

ولقد وعى مشركو العرب هذه الحقيقة منذ دعا النبي ﷺ من أول يوم إلى التوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وعلموا أن وراء هذه الكلمة انقلاباً في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وأنها تؤذن بميلاد جديد لبني الإنسان ، ولا سيما الفقراء والمستضعفين والمسحوقين ، فلا غرو أن وقفوا في وجهها ، وجنّدوا كل قواهم لحرب كل من آمن بها ، واستجاب لندائها .

● الشورى :

ومن القيم الإنسانية والاجتماعية التي جاء بها الإسلام : الشورى .

ومعنى الشورى : ألا ينفرد الإنسان بالرأي وحده في الأمور التي تحتاج إلى مشاركة عقل آخر أو أكثر ، فرأي الاثنين أو الجماعة أدنى إلى إدراك الصواب من رأي الواحد .

كما أن التشاور في الأمر يفتح مغاليقه ، ويتيح النظر إليه من مختلف زواياه ،
بمقتضى اختلاف اهتمامات الأفراد ، واختلاف مداركهم وثقافتهم ، وبهذا يكون
الحكم على الأمر مبنياً على تصور شامل ، ودراسة مستوعبة .

فالإنسان بالشورى يضيف إلى عقله عقول الآخرين وإلى علمه علوم الآخرين ،
وفي هذا يقول الشاعر العربي :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم

وقد دعا الإسلام إلى الشورى في حياة الفرد ، وفي حياة الأسرة ، وفي حياة
المجتمع والدولة .

● الشورى في حياة الفرد :

ففي حياة الفرد يربي الإسلام المسلم إذا أراد أن يقدم على أمر من الأمور
المهمة ، التي تختلف فيها الوجهات ، وتتعارض الآراء والرغبات ، ويتردد فيها
المرء بين الإقدام والإحجام ، أن يستعين بأمرين يساعده على اتخاذ القرار
الأصوب .

أحد هذين الأمرين : رباني ، وهو استشارة الله تعالى ، وهي صلاة ركعتين
يعقبها دعاء ، مضمونه أن يختار الله له خير الأمرين في دينه ودنياه ، ومعاشه
ومعاده .

والثاني : إنساني ، وهو استشارة مَنْ يثق برأيه وخبرته ونصحه وإخلاصه .
وبهذا يجمع بين استشارة الخالق ، واستشارة الخلق .

وقد حفظ المسلمون من تراثهم : لا خاب مَنْ استخار ، ولا ندم مَنْ استشار .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم ، يستشيرون النبي ﷺ في كثير من أمورهم
الخاصة ، فيشير عليهم بما يراه صواباً أو أصوب أو أفضل . كما رأينا حين
استشارته فاطمة بنت قيس في أمر زواجها ، وقد أبدى الرغبة فيها رجلان : معاوية

وأبو جهم . فقال لها : «أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه!»^(١) . أي يضرب النساء . واقترح عليها أن تتزوج أسامة بن زيد . وكان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يستشير بعض أصحابه في أموره الخاصة كذلك .

فقد رأيناه في أزمة (حديث الإفك) يستشير علي بن أبي طالب ، ويسأل أسامة ابن زيد^(٢) .

● الشورى في حياة الأسرة :

وفي حياة الأسرة يدعو الإسلام إلى أن تقوم الحياة الأسرية على أساس من التشاور والتراضي . وذلك منذ بداية تكوين الأسرة . ولهذا رفضت نصوص الشريعة أن يستبد الأب بتزويج ابنته - ولو كانت بكرًا - دون أن يأخذ رأيها .

وأوجب التوجيه النبوي أن تُستأذن البكر ، وإن كانت تستحيي ، فجعل إذنها صماتها . فإن سكوتها عند عرض الأمر عليها دليل على الرضا والقبول^(٣) .

وقد رد النبي ﷺ بعض عقود الزواج التي تمت بغير إرادة البنت ، لأن الشرع لم يُجْزَ لأحد أن يتصرف في مالها وملكها بغير إذنها ، فكيف بمصيرها ومستقبل حياتها^(٤)!

بل رَغِبَتِ السُّنَّةُ آباء البنات أن يشاوروا أمهات بناتهن في أمر زواجهن ، أي يشاور الرجل زوجته عند تزويج ابنتهما ، وفي هذا جاء الحديث الذي رواه الإمام أحمد : «أمروا النساء في بناتهن»^(٥) .

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٨٠) ، عن فاطمة بنت قيس .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦١) ، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠) ، عن عائشة .

(٣) رواه البخاري في الحيل (٦٩٧١) ، عن عائشة ، ومسلم في الحج (١٤٢١) ، عن ابن عباس .

(٤) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٤٥) ، عن خنساء بنت خدام .

(٥) رواه أحمد (٤٩٠٥) وقال مخرجه : حديث حسن . وأبو داود في النكاح (٢٠٩٥) .

وذلك أن الأم أعلم بابتها من الأب ، فهي باعتبارها أنثى تعرف اتجاهها وعواطفها ، والبنت تبوح لأمها عن أسرارها ما لا تجرؤ أن تبوح به لوالدها .

وبعد بناء الأسرة ينبغي للزوجين أن يتفاهما ويتشاورا فيما يهم الحياة المشتركة بينهما ، وفيما يهم كل واحد منهما على حدة ، وفيما يهم حياة ذريتهما ومستقبلها . ولا يجوز أن يستهان برأي المرأة هنا ، كما يشيع عند بعض الناس ، فكم من امرأة كان رأيها خيراً وبركة على أهلها وقومها .

وما كان أحصف رأي خديجة وموقفها في أول ساعات الوحي ، ودورها في تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، والذهاب معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، ليطمئنه ويبشره^(١) .

وكذلك رأي أم سلمة يوم الحديبية^(٢) . وسيأتي الحديث عنه .

ومن الروائع القرآنية : التنبيه على ضرورة التشاور والتراضي بين الزوجين فيما يتصل برضاع الأولاد وغطامهم ، ولو بعد الانفصال بينهما . يقول تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . . . ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (البقرة: ٢٣٣) .

● الشورى في حياة المجتمع والدولة :

أما الشورى في حياة المجتمع والدولة المسلمة ، فقد جعلها القرآن من المكونات المهمة للجماعة المسلمة ، وذلك في القرآن المكي الذي يرسى القواعد ، ويضع الأسس للحياة الإسلامية . فقد ذكر الشورى في أوصاف المؤمنين ، مقرونة بمجموعة من الصفات الأساسية التي لا يتم إسلام ولا إيمان إلا بها . وهي : الاستجابة لله تعالى ، وإقام الصلاة ، والإنفاق مما رزق الله ، وهذا ما ذكر في السورة

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٩٥٣) ، ومسلم في الإيمان (١٦٠) ، عن عائشة .

(٢) رواه البخاري في الشروط (٢٧٣١) ، عن المسور بن مخرمة .

التي تحمل اسم (الشورى) يقول تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى: ٣٦-٣٨) .

والمراد بقوله (وأمرهم) : الأمر العام الذي يهم جماعتهم ، ويؤثر في حياتهم المشتركة .

وهو (الأمر) الذي أمر الله تعالى رسوله بالمشاورة فيه . فقد قال تعالى في سورة آل عمران من القرآن المدني : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) .

وقد جاء هذا الأمر من الله ورسوله بعد غزوة (أحد) ، التي شاور النبي فيها أصحابه ، ونزل عن رأيه إلى رأي أكثريتهم ، وكانت النتيجة ما أصاب المسلمين من قرح ، وما اتخذه الله من شهداء : سبعين من خيار الصحابة ، منهم حمزة ومصعب وسعد بن الربيع وغيرهم .

ومع هذا أمر الله رسوله بالمشاورة لهم ، ومعناه : استمر على مشاورتهم ، ففيها خير وبركة ، وإن جاءت النتيجة في إحدى المرات على غير ما تحب ، فالعبرة بالعاقبة .

وقد كان النبي ﷺ أكثر الناس مشاورة لأصحابه : شاورهم في غزوة (بدر) ، قبل القتال ، وفي أثنائه ، وبعده . ولم يدخل المعركة إلا بعد أن اطمأن إلى رضا جمهورهم .

وشاورهم في (أحد) ، فنزل عن رأيه إلى رأي الأكثرية التي رأت الخروج إلى القوم ، لا القتال داخل المدينة .

وشاورهم في (الخندق) ، وهم أن يصالح (غطفان) على شيء من ثمار المدينة ، ليعزلهم عن قريش ، وأبى ممثلو الأنصار ذلك ، فوقف عند رأيهم .

وفي (الحديبية) شاور أم سلمة في امتناع أصحابه عن التحلل من إحرامهم بعد الصلح ، فقد عزّ عليهم ذلك بعد نيّة العمرة . فأشارت عليه أم سلمة أن يخرج

إليهم ، ويتحلل من إحرامه أمامهم دون أن يتكلم ، فما أن رأوه فعل ذلك ، حتى بادروا إلى الاقتداء به .

والإسلام كما يأمر الحاكم أن يستشير ، يأمر الأمة أن تنصح له ، كما جاء في الحديث الصحيح : « الدين النصيحة ... لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم »^(١) .

وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عامة ، تشمل الحكام والمحكومين كافة ، كذلك فريضة التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، التي لا نجاة للإنسان من خسران الدنيا والآخرة إلا بها . فليس في المسلمين أحد أكبر من أن يُوصى وينصح ، ويؤمر وينهى . وليس فيهم أحد أصغر من أن يوصى وينصح ، ويأمر وينهى . وقد كان النبي ﷺ يشار عليه بالرأي مخالفاً لرأيه فيأخذ به ، ويدع رأيه الشخصي .

وقد بعث أبا هريرة يبشر الناس بأن : « مَنْ قَالَ (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) دخل الجنة » . فخشي عمر أن يفهمها الناس فهماً مغلوطاً ، ويفصلوا الكلمة عن العمل ، ولذا أوقف أبا هريرة ، ويّين للرسول ﷺ خوفه من أن يتكل الناس على ذلك قائلاً : فخلهم يعملون ، فقال الرسول ﷺ : « فخلهم يعملون »^(٢) .

وقال أبو بكر في خطابه السياسي الأول بعد توليه الخلافة ، يبيّن منهجه في الحكم : إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم^(٣) .

وقال عمر : أيها الناس ، مَنْ رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومني . فقال له أحدهم : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيفنا !

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٥) ، عن تميم الداري .

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٣١) ، عن أبي هريرة .

(٣) مصنف عبد الرزاق في باب لا طاعة في معصية (٢٠٧٠٢) .

فقال عمر : الحمد لله الذي جعل في رعية عمر مَنْ يَقُومُ عمر بحد سيفه^(١) !
وقال له بعضهم يوماً : اتق الله يا عمر ! فأنكر عليه بعض مَنْ عنده أن يقول ذلك
لأمير المؤمنين ، فقال عمر : دعه . لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا
لم نسمعها^(٢) .

بل إنَّ الرسول ﷺ يشرع المعارضة المسلحة للأمير الفاجر بشرطين :
الأول : الانحراف البيِّن عن منهج الإسلام في عقيدته أو شريعته ، وهو ما أطلق
عليه الحديث النبوي : (الكفر البواح) .

فقد أوصى الرسول ﷺ مَنْ بايعه من أصحابه أن يصبروا على أمرائهم ، وإن
استأثروا ببعض المكاسب الدنيوية دونهم ، قال : « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم
فيه من الله برهان »^(٣) .

والثاني : أن تكون هناك قدرة على إزالة المنكر ، دون أن يترتب على إزالته
منكر أكبر منه . وإلا وجب تحمل المنكر الأدنى مخافة وقوع المنكر الأعلى . بناء
على قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، وأهون الشرين .
وعند هذا الخوف تنتقل المعارضة من القتال باليد ، إلى السياسة باللسان والقلم ،
ثم إلى الإنكار بالقلب ، وذلك أضعف الإيمان .

وفي هذا جاء حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ : « ما من نبي بعثه الله في أمة
قبله ، إلا كان له من أمتة حواريون وأصحاب ، يأخذون بسُنَّته ، ويقتدون بأمره ،
ثم إنها يخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون .
فمَنْ جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومَنْ جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومَنْ جاهدكم
بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »^(٤) .

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٢٩) .

(٢) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٦٠١/٢) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٦) ، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩) ، عن عبادة
ابن الصامت .

(٤) رواه مسلم في الإيمان (٥٠) ، عن ابن مسعود .

والقرآن الكريم ينقل لنا صورة طيبة عن الحكم الذي يقوم على الشورى ، مثلاً في ملكة سبأ التي فاجأها كتاب سليمان عليه السلام يحمله الهدهد ، فجمعت قومها وقالت : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَلَكُ أَفْتُونٍ فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ ٣٥ ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ٣٦ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ٣٧ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ . . . ﴾ الآيات (النمل ٣٢-٣٥) .

وقد انتهى هذا السلوك الشوري الحكيم بالملكة الرشيدة إلى أن أسلمت مع سليمان لله رب العالمين . فنجت ونجا معها قومها من حرب خاسرة ، وكسبت بذلك الدنيا والآخرة .

وينقل القرآن صورة أخرى مظلمة عن الحكم الذي يقوم على التآله والتسلط ، مثل حكم فرعون الذي قال للناس ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (النازعات ٢٤) . ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ (القصص ٣٨) ، والذي لا يستشير في الأمور الهامة إلا بطانته الخاصة ، كما رأينا ذلك في قصة فرعون مع موسى ، حين حاور فرعون فأفحمه ، فهدده بالسجن ، فقال موسى : ﴿ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ٣٩ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٤٠ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٤١ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ٤٢ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ٤٣ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (الشعراء ٣٠-٣٥) ؟

فهذه ليست استشارة حقيقية ، لأنها تخص (الملا حوله) فقط ، ثم هي استشارة موجهة ، فهو لا يأخذ رأيهم في شأن موسى ، وماذا تكون رسالته ، وما حقيقة أمره ؟ بل حكم عليه قبل أن يسألهم الرأي : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ٤٣ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ .

وقد بين القرآن حقيقة حكم فرعون ، وموقفه من رعيته حين قال : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص ٤) .

فهذا (العلو) في الأرض هو ما نعبر عنه في لغة السياسة المعاصرة بكلمة (الطغيان) .

وقد كرر القرآن ذلك في وصف فرعون : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الدخان ٣١) .

ولم يكن علو فرعون وطغيانه على بني إسرائيل وحدهم ، بل على المصريين أيضاً ، إذا خطر لأحدهم أو لفئة منهم أن يخرجوا عن خطه ، ويتمردوا على ربوبيته .

وهذا ما تجلى واضحاً في موقفه من السحرة الذين جلبهم من كل صوب لينصروه على موسى ، فخذله الله بهم ، حين آمنوا برب هارون وموسى ، بعد أن تبين لهم الحق من الباطل .

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأُكُلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (طه ٧١) .

وانظر إلى قوله : ﴿ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ إنه يريد أن يحجر على عقول الناس وقلوبهم ، فلا يجوز لعقل أن يقتنع بشيء ، ولا لقلب أن يؤمن بأمر ، إلا بإذنه وبعد تصريح منه!!

لقد ذم القرآن فرعون ، وذم القوى الدنسة المتحالفة معه ، مثل (قارون) الذي يمثل الرأسمالية البشعة الجشعة ، التي لا ترى لأحد عليها حقاً فيما تملك من مال . كما جسدها قارون بقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (القصص ٧٨) .

ومثل هامان الذي يمثل السياسيين النفعيين الذين يضعون قدراتهم الذهنية والتنفيذية في خدمة الطاغية الأكبر . فهو عقله المفكر ، وساعده المنفذ !

كما شمل القرآن بالذم أعوان الطغاة من الجنود الذين يعتبرون أدوات في أيديهم ، يستخدمونها لجلد الشعوب وقهرها ، ولهذا قال القرآن : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (القصص ٨) .

ويقول عن فرعون : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص ٤٠) . وكلمة (الجنود) تشمل كل أعوان الطاغية من عسكريين ومدنيين .

والقرآن يحارب الطغيان والاستبداد من عدة نواح :

من ناحية الحملة على الطغاة والمتجبرين في الأرض : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر ٣٥) .

﴿ وَأَسْتَفْتِحُوكُمْ عَلَى الْيَمِّ ۖ وَجَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (إبراهيم ١٥) .

ومن ناحية الحملة على الأعوان المباشرين من كبار مثل هامان وقارون ، أو صغار مثل جنود فرعون .

ومن ناحية ثالثة : الحملة على الشعوب التي تسلم قيادها للطغاة ، دون أن تسألهم يوماً : لِمَ؟ أو كيف؟ بله أن تقول : لا ، بملء فيها !

لقد ذم القرآن قوم نوح على لسانه بقوله : ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدَّهُمْ آلَهِ مَالَهُ ۖ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (نوح ٢١) .

وذم عاداً قوم هود بقوله : ﴿ وَأَتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۖ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (هود ٥٩-٦٠) .

وذم قوم فرعون بقوله : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ۖ فَاطَاعُوهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (الزخرف ٥٤) .

وعرض القرآن لنا صوراً جمّة من مشاهد الآخرة ، وفيها يتلاوم السادة الكبراء المضلون ، وأتباعهم المضللون ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويحاول كل فريق أن يلقي بالتبعة على الآخر . ولكن الله يحكم على الجميع بأنهم من أهل النار .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا الْسَّبِيلَ ۖ رَبَّنَا إِنَّا أَهْلُ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأحزاب ٦٧-٦٨) .

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ
 اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة ١٦٦-١٦٧﴾ .

إن أساس قبول القيادة السياسية للأمة في الإسلام هو: الرضا والبيعة الاختيارية .
 فمن رضيه المسلمون إماماً : أي أميراً ورئيساً لهم ، وبإيعوه على ذلك ، فهو
 الولي الشرعي الذي تجب طاعته في المعروف . وتجب المناصحة له بالحق ،
 والمعاونة له على كل خير .

والإسلام لا يحب أن يؤم رجل الناس في صلاة الجماعة وهم له كارهون ،
 فكيف يقبل أن يقود رجل الأمة كلها في شؤونها العامة ، وهي له كارهة ، وبه
 ضائعة ، وعليه ساخطة؟

جاء في الحديث الشريف : « ثلاثة لا تُرفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً : رجل
 أم قوماً وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، وأخوان
 متصارمان »^(١) .

● العدل :

ومن القيم الإنسانية الأساسية التي جاء بها الإسلام ، وجعلها من مقومات الحياة
 الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية : (العدل) .

حتى جعل القرآن إقامة القسط - أي العدل - بين الناس هو هدف الرسالات
 السماوية كلها . يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
 وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد ٢٥) .

وليس ثمة تنويه بقيمة القسط أو العدل أعظم ، من أن يكون هو المقصود الأول
 من إرسال الله تعالى رسله ، وإنزاله كتبه .

(١) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧١) واللفظ له . والطبراني في الكبير (١٢٢٧٥) .
 وصححه ابن حبان (١٧٥٧) ، والضياء في المختارة (٤٠١) .

فبالعدل أنزلت الكتب ، وبعثت الرسل ، وبالعدل قامت السماوات والأرض .
والمراد بالعدل : أن يُعطى كل ذي حق حقه ، سواء أكان ذو الحق فرداً أم جماعة ، أم شيئاً من الأشياء ، أم معنى من المعاني ، بلا طغيان ولا إفسار ، فلا يبخس حقه ، ولا يجور على حق غيره .

قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن ٧-٩) .

والإسلام يأمر المسلم بالعدل مع النفس : بأن يوازن بين حق نفسه ، وحق ربه ، وحق غيره .

كما قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو ، حين جار على حق نفسه بمدومة صيام النهار وقيام الليل : « إِنَّ لَبَدْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنْ لَعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنْ لَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنْ لَزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا » ^(١) .

ويأمر الإسلام بالعدل مع الأسرة : مع الزوجة ، أو الزوجات ، مع الأبناء والبنات .

يقول تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ۖ ﴾ (النساء ٣) .

ويقول الرسول ﷺ : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم » ^(٢) ، وحين أراد بشير ابن سعد الأنصاري أن يشهده عليه الصلاة والسلام على هبة معينة أثر بها بعض أولاده ، سأله النبي ﷺ : « أكل أولادك أعطيتهم مثل هذا؟ » . قال : لا . قال : « أشهد على ذلك غيري ، فإني لا أشهد على جور » ^(٣) .

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٩٧٥) ، ومسلم (١١٥٩) ، كلاهما في الصيام ، عن عبد الله ابن عمرو .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٢٥٨٧) ، ومسلم (١٦٢٣) ، كلاهما في الهبات ، عن النعمان ابن بشير .

(٣) رواه مسلم في الهبات (١٦٢٣) ، عن النعمان بن بشير .

ويأمر الإسلام بالعدل مع الناس كل الناس : عدل المسلم مع مَنْ يحب ، وعدل المسلم مع مَنْ يكره ، لا تدفعه عاطفة الحب إلى المحاباة بالباطل ، ولا تمنعه عاطفة الكره من الإنصاف ، وإعطاء الحقَّ لِمَنْ يستحقُّ .

يقول تعالى في العدل مع مَنْ نحب : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (النساء ١٣٥) .

ويقول سبحانه في العدل مع مَنْ نعادي : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (المائدة ٨) .

وكم حفل التاريخ السياسي والقضائي في الإسلام بمواقف رائعة ، حكم فيها لغير المسلمين ضد المسلمين ، وللرعية ضد الرعاة .

يأمر الإسلام بالعدل في القول ، فلا يخرج الغضب عن قول الحق ، ولا يدخله الرضا في قول الباطل . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

(الأنعام ١٥٢) .

ويأمر بالعدل في الشهادة ، فلا يشهد إلا بما علم ، لا يزيد ولا ينقص ، ولا يحرف ولا يبدل . قال تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ (الطلاق ٢) ، ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ (المائدة ٨) .

ويأمر الإسلام بالعدل في الحكم . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء ٥٨) .

وقد استفاضت الأحاديث في فضل (الإمام العادل) فهو أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله^(١) ، وأحد الثلاثة الذين لا تُردُّ لهم دعوة^(٢) .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الأذان (٦٦٠) ، ومسلم في الكسوف (١٠٣١) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد (٨٠٤٣) وقال مخرجه : صحيح بطرقه وشواهد . والترمذي في الدعوات (٣٥٩٨) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢) . وصححه ابن خزيمة (١٩٠١) ، وابن حبان (٣٤٢٨) ، وابن الملقن في البدر المنير (١٥٢/٥) .

وبقدر ما أمر الإسلام بالعدل وحثّ عليه ، حرّم الظلم أشد التحريم ، وقاومه
أشد المقاومة ، سواء ظلم النفس أو ظلم الغير ، وبخاصة ظلم الأقوياء للضعفاء ،
وظلم الأغنياء للفقراء ، وظلم الحكام للمحكومين . وكلما اشتد ضعف الإنسان كان
ظلمه أشد إثماً .

يقول الرسول ﷺ لمعاذ : « واتی دعوة المظلوم ، فلیس بینها وبين الله
حجاب »^(١) .

وقال : « دعوة المظلوم یرفعها الله فوق الغمام ، ویفتح لها أبواب السماء ، ویقول
الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين »^(٢) .

ومن أبرز أنواع العدل ، الذي شدّد فيه الإسلام ما سمي في عصرنا : العدل
الاجتماعي . ويراد به : العدل في توزيع الثروة ، وإتاحة الفرصة المتكافئة لأبناء
الأمة الواحدة ، وإعطاء العاملين ثمرة أعمالهم وجهودهم ، دون أن يسرقها القادرون
وذوو النفوذ منهم ، وتقريب الفوارق الشاسعة بين الأفراد والفئات بعضها وبعض ،
بالحد من طغيان الأغنياء ، والعمل على رفع مستوى الفقراء .

وهذا الجانب سبق فيه الإسلام سبقاً بعيداً ، حتى إن القرآن منذ عهده المكي لم
يغفل هذا الأمر الحيوي ، بل أعطاه عناية بالغة ، ومساحة واسعة .

فَمَنْ لَمْ يُطْعَمْ الْمَسْكِينُ كَانَ مِنْ أَهْلِ سَقَرِ الْمَعْدِنِ فِي النَّارِ ، ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ
مِنْ الْمُصْلِينَ ﴾^(٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿ (المدر ٤٣-٤٤) .

ولا يكفي أن تطعم المسكين ، بل يجب أن تحمل نصيبك في الدعوة إلى
إطعامه ، والحض على رعاية ضروراته وحاجاته : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ
بِالدِّينِ ﴾^(٤) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿ وَلَا تَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾^(٥)

(الماعون ١-٣) .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦) ، ومسلم في الإيمان (١٩) ، عن ابن عباس .

(٢) رواه أحمد (٨٠٤٣) ، وقال مخرجه : صحيح بطرقه وشواهده . والترمذي في الدعوات

(٣٥٩٨) وحسنه ، وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢) ، عن أبي هريرة . وصححه ابن حبان

(٨٧٤) ، وابن خزيمة (١٩٠) .

وإهمال هذا الحضر يضعه القرآن جنباً إلى جنب مع الكفر بالله تعالى ،
 الموجب للعذاب الأليم ، وصليّ الجحيم : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۚ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝
 ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝
 وَلَا تَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ ﴾ (الحاقة ٣٠-٣٤) .

والمجتمع الجاهلي مجتمع مذموم مسخوط عليه من الله تعالى ، لضياح الفئات
 الضعيفة فيه ، وانشغال الأقوياء ، بأكل التراث وحب المال : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ
 الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا
 لَمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ آلَ مَالٍ حُبًّا جَمًّا ۝ ﴾ (الفجر ١٧-٢٠) .

لقد اهتم الإسلام بالطبقات الضعيفة في المجتمع ، فشرع لهم من الأحكام
 والوسائل ، ما يكفل لهم العمل الملائم لكل عاطل ، والأجر العادل لكل عامل ،
 والطعام الكافي لكل جائع ، والعلاج الناجع لكل مريض ، والكساء المناسب لكل
 عريان . والكفاية التامة لكل محتاج . وتشمل هذه الكفاية : المأكل والملبس
 والسكن ، وكل ما لا بدّ له منه ، على ما يليق بحاله ، من غير إسراف ولا تقتير ،
 لنفس الشخص ولمن يعوله . وهذا تعريف الإمام النووي في (المجموع)^(١) .

وفرض لذلك الإسلام حقوقاً مالية في أموال الأغنياء ، أولها وأعظمها الزكاة .
 التي اعتبرها الإسلام ثالث أركانها ، يؤديها المسلم طوعاً واحتساباً ، وإلا أخذت منه
 كرهاً ، ولو أن طائفة ذات شوكة امتنعت من أدائها قوتلت عليها بحد السيوف .

تؤخذ الزكاة من الأغنياء لتردّ على الفقراء . فهي من الأمة وإليها .
 والأرجح أن يُعطى الفقير من الزكاة كفاية العمر الغالب لأمثاله ، متى اتسعت
 حصيلة الزكاة لذلك . وبذلك يصبح في العام القادم يداً معطية لا آخذة ، عليا
 لا سفلى .

(١) المجموع (١٩١/٦) .

وقد ألفت كتب في هذا الموضوع ، ينبغي أن تراجع^(١). وفي كتابنا (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي) خطوط عريضة مركزة لمقومات العدل الاجتماعي في الإسلام ، يحسن الرجوع إليها .

● الإخاء :

ومن القيم الإنسانية الاجتماعية التي دعا إليها الإسلام : الإخاء - أو الأخوة - ومعناه : أن يعيش الناس في المجتمع متحابين مترابطين متناصرين ، يجمعهم شعور أبناء الأسرة الواحدة ، التي يحب بعضها بعضاً ، ويشد بعضها أزر بعض ، يحس كل منها أن قوة أخيه قوة له ، وأن ضعفه ضعف له ، وأنه قليل بنفسه كثير بإخوانه .

ولأهمية هذه القيمة في بناء المجتمع المسلم سنفصل فيها بعض التفصيل .
والقرآن يجعل الإخاء في المجتمع المؤمن صنو الإيمان ، ولا يفصل عنه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات ١٠) .

ويجعل القرآن الأخوة نعمة من أعظم النعم ، فيقول : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾

(آل عمران ١٠٣) .

ويقول في سورة أخرى ممتناً على رسوله الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال ٦٢-٦٣) .

(١) من ذلك : كتب الشيخ محمد الغزالي الأولي : (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) ، و(الإسلام والمناهج الاشتراكية) ، و(الإسلام المفترى عليه) ، وكتاب الشهيد سيد قطب : (العدالة الاجتماعية في الإسلام) ، وكتاب المرحوم مصطفى السباعي : (اشتراكية الإسلام) ، وكتابنا (فقه الزكاة) ، و(مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام) .

ويقول النبي ﷺ : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يُسلمه»^(١).

«لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تناجشوا ... وكونوا عباد الله إخواناً»^(٢).

وقد ذكرنا من قبل ما روى الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم : أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة :

«اللَّهُم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك .

اللَّهُم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك .

اللَّهُم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة» .

فجعل إقرار مبدأ (الأخوة) بعد الشهادة لله تعالى بالوحدانية ، ولمحمد ﷺ بالعبودية والرسالة .

وقوله : «أن العباد كلهم إخوة» ، يحتمل معنيين ، كلاهما صحيح :

الأول : أن العباد هنا هم البشر كافة ، فهم أخوة بعضهم لبعض ، بحكم البنوة لآدم ، والعبودية لله سبحانه . وهذه أخوة إنسانية عامة .

وقد وصف الله تعالى عدداً من الرسل في القرآن بأنهم إخوة لأقوامهم رغم كفرهم برسالتهم ، لاشتراكهم معهم في الجنس والأصل ، كما في قوله تعالى : ﴿وَالِىٰٓ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ (الأعراف ٦٥) ، ﴿وَالِىٰٓ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ (الأعراف ٧٣) ، ﴿وَالِىٰٓ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الأعراف ٨٥) .

الثاني : أن العباد هنا هم المسلمون خاصة ، بحكم اشتراكهم في ملة واحدة ، تضمهم عقيدة واحدة هي التوحيد ، وقبلة واحدة هي الكعبة البيت الحرام ، وكتاب واحد هو القرآن ، ورسول واحد هو محمد عليه الصلاة والسلام ، ومنهج واحد ، هو شريعة الإسلام .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠) ، عن ابن عمر .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣) ، عن أبي هريرة .

وهذه أخوة دينية خاصة ، لا تنافي الأولى ، إذ لا تنافي بين الخاص والعام .
كل ما في الأمر أن لهذه الأخوة حقوقاً أكثر ، بمقتضى وحدة العقيدة والشرعية ،
والفكر والسلوك .

● المحبة ومراتبها :

ومن العناصر الأساسية لهذه الأخوة : المحبة ، وأدنى درجات المحبة سلامة
الصدر ، من الحسد والبغضاء والأحقاد ، وأسباب العداوة والشحناء .

والقرآن يعتبر العداوة والبغضاء عقوبة قدرية يعاقب الله بها من يكفرون
برسالاته ، وينحرفون عن آياته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا
نُصْرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

(المائدة ١٤) .

ويتحدث القرآن عن الخمر والميسر وهما من الكبائر الموبقة في نظر الإسلام ،
فيجعل العلة الأولى في تحريمها ، الجديرة بالنص عليها ، هي إيقاع العداوة
والبغضاء في المجتمع ، رغم ما لهما من مضار ومساوئ أخرى لا تخفى ، فيقول
تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ (المائدة ٩١) .

وقد جاء في الحديث تسمية هذه الآفات : « داء الأمم » .

كما أن الحديث سماها : الحالقة ، حالقة الدين لا حالقة الشعر ، وذلك
لخطرها على الجماعة وتماسكها المادي والمعنوي . وفي هذا يقول عليه الصلاة
والسلام :

« دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ : الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ . وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ ،
لَا أَقُولُ : تَحْلِقُ الشَّعْرَ ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ »^(١) .

(١) رواه أحمد (١٤٣٠) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠) ، والضياء في المختارة (٨٨٩) ،
عن الزبير بن العوام .

«ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»^(١).

«تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس ، فيُغفر لكل عبد لا يُشرك بالله شيئاً ، إلا رجل كان بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال : أنظروا هذين حتى يصطلحا ، انظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا»^(٢).

«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث : يلتقيان ، فيُعرض هذا ، ويُعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»^(٣).

«ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً : رجل أمّ قومًا وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، وأخوان متصارمان»^(٤) أي متقاطعان .

إن جو البغضاء والشحناء جو عفن كريه ، تروج فيه كل بضائع الشيطان من سوء الظن ، والتجسس ، والغيبة والنميمة ، وقول الزور ، والسب واللعن ، وقد ينتهي إلى أن يقاتل الأخوة بعضهم بعضاً . وهذا هو الخطر ، الذي حذّر منه النبي الكريم ﷺ ، واعتبره من أثر الجاهلية ، وقال : «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٥).

«سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر»^(٦).

(١) رواه أحمد (٢٧٥٠٨) ، وقال مخرجه : إسناده صحيح ، رجاله ثقات . والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩) وقال : حسن صحيح . وأبو داود في الأدب (٤٩١٩) . وصححه ابن حبان (٥٠٩٢) عن أبي الدرداء .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٥) ، عن أبي هريرة .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠٧٧) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٠) عن أبي أيوب .

(٤) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧١) واللفظ له . والطبراني في الكبير (١٢٢٧٥) . وصححه ابن حبان (١٧٥٧) ، والضياء في المختارة (٤٠١) .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في العلم (١٢١) ، ومسلم في الإيمان (٦٥) ، عن جرير .

(٦) متفق عليه : رواه البخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) ، كلاهما في الإيمان ، عن ابن مسعود .

لهذا كان إصلاح ذات البين من أفضل الأعمال والقربات إلى الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات ١٠).

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(الأنفال ١)

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ
النَّاسِ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(النساء ١١٤)

بل جعلت الشريعة سهماً من حصيلة الزكاة للغارمين في إصلاح ذات البين ،
إعانة لهم على القيام بهذه المكرمات ، التي كان يقوم بها أصحاب القلوب الكبيرة
والهمم العالية ، فيتحملون ما بين القبائل المتخاصمة من ديات ومغارم ، وإن
ضاقت بذلك أموالهم .

ولأهمية إصلاح ذات البين ، رخص النبي ﷺ لمن يقوم بالإصلاح ألا يلتزم
الصدق الكامل في وصف موقف كل طرف من الآخر ، فنقل بعض العبارات كما
قيلت ، قد يؤجج نار الخصومة ولا يطفئها ، فلا بأس بشيء من التزيين ، وشيء من
المعاريض ، وفي هذا جاء الحديث الصحيح : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين
فقال خيراً ، أو أنمى خيراً »^(١) .

وأعلى من هذه الدرجة - درجة سلامة الصدور من الأحقاد والبغضاء - الدرجة
التي عبّر عنها الحديث الصحيح الذي يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه
ما يحب لنفسه »^(٢) .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٢) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٥) ، عن أم
كلثوم بنت عقبة .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) ، كلاهما في الإيمان ، عن أنس .

وفي لفظ : « والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير »^(١).

ومقتضى ذلك : أن يكره له ما يكره لنفسه .

فإذا كان يحب لنفسه رغد العيش أحب ذلك لسائر الناس .

وإذا كان يحب أن يوفق في حياته الزوجية ، أحب للناس أن يكونوا سعداء موفقين .

وإذا كان يحب أن يكون أولاده نجباء ، أحب ذلك لغيره .

وإذا كان لا يحب أن يذكره أحد بسوء في حضرته أو غيبته ، كان موجب الإيمان ألا يحب ذلك للناس أجمعين .

فهو ينزل إخوانه منزلة نفسه في كل ما يحب ويكره .

● درجة الإيثار :

وتمت درجة أعلى من هذه وتلك : هي درجة الإيثار .

ومعنى الإيثار : أن يقدم أخاه على نفسه في كل ما يحب ، فهو يجوع ليشبع أخوه ، ويظمأ ليرتوي ، ويسهر لينام ، ويجهد ليرتاح ، ويعرض صدره للرصاص ليفدي أخاه .

وقد عرض لنا القرآن صورة وضيئة للمجتمع المسلم في المدينة ، يتجلى فيها معنى الإيثار والبذل ، من غير شح ولا بخل . يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر ٩) .

(١) رواه أحمد (١٣٦٢٩) ، وقال مخرجه : إسناده صحيح على شرط الشيخين . والنسائي في الإيمان (٥٠١٧) ، عن أنس . وصححه ابن حبان (٢٣٥) ، والضياء في المختارة (٢٥٢٥) .

وفي السنة نجد صورة أخرى تتمثل فيما رواه البخاري : أن سعد بن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف - وقد آخى النبي ﷺ بينهما - أن يتنازل عن شطر ماله ، وعن إحدى داريه ، وإحدى زوجتيه ، يطلقها ليتزوجها هو . فقال ابن عوف لسعد : بارك الله لك في أهلك ، وبارك الله لك في دارك ، وبارك الله لك في مالك ، إنما أنا امرؤ تاجر ، فدلوني على السوق^(١) !

إيثار نادر قلّ أن تعرف الدنيا له نظيراً ، يقابله تعفف كريم نبيل ، وكلاهما يعطينا ملمحاً من ملامح المجتمع المسلم الذي أقامه الرسول الكريم ﷺ في المدينة ، والذي نرنو إلى مثله دائماً ، باعتباره مثلاً أعلى للمجتمعات .

والإسلام يحرص كل الحرص على أن تسود المحبة والأخوة بين الناس جميعاً : بين الشعوب بعضها وبعض ، لا يفرق بينهما اختلاف عنصر أو لون أو لغة أو إقليم .

وبين الطبقات بعضها وبعض ، فلا مجال لصراع أو حقد ، وإن تفاوتوا في الثروة والمنزلة ، وفضل الله بعضهم على بعض في الرزق .

وبين الحكام والمحكومين ، فلا محل لاستعلاء حاكم على محكوم ، فإن الحاكم هو وكيل الأمة ؛ بل أجيرها ، ولا لبغض محكوم لحاكم ما دام يأخذ حقه ، كما يؤدي واجبه ، وفي الحديث : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم »^(٢) أي تدعون لهم ، ويدعون لكم ، فالصلاة هنا بمعناها اللغوي وهو الدعاء .

● ربط النظرية بالتطبيق :

والإسلام لا يحب أن تكون دعوته مجرد فكرة في الرؤوس ، أو حلمًا في أخيلة المصلحين ، بل يجب أن يربط الفكرة بالعمل ، والنظرية بالتطبيق . . لهذا دعا إلى

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٤٩) ، عن أنس .

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٥) ، عن عوف بن مالك .

مجموعة من الشعائر والآداب والتقاليد من شأنها أن توثق روابط المحبة بين الناس ، إذا عملوا بها ، وحافظوا عليها .

من ذلك إفشاء السلام كلما لقي بعضهم بعضاً ، وهذا ما نبّه عليه الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم »^(١) .

ومن ذلك مجاملة الناس بعضهم لبعض ، في التهنئة عند النعمة ، والتعزية عند المصيبة ، وعيادة المريض ، وتشميت العاطس .

ومن ذلك : التهادي بين الناس في المناسبات الطيبة . وفي الحديث : « تهادوا تحابوا »^(٢) .

ومن ذلك : التلاقي ، الذي به تتعارف الوجوه ، وتتصافح الأيدي ، وهذا ما شرعه الإسلام بصلاة الجماعة والجمعة والعيدين .

كما حرّم الإسلام كل الرذائل الخُلُقية والاجتماعية التي تفضي إلى تقطع أواصر المحبة والمودة بين الناس ، ولهذا رأينا القرآن الكريم بعد أن قرر أن المؤمنين إخوة : أتبع ذلك بالنهاي عن مجموعة من الرذائل التي تنافي الأخوة ، وتعمل في بنيانها هدماً . مثل السخرية واللمز والتنازع بالألقاب ، والتجسس على الناس ، وتبع عوراتهم ، وسوء الظن بهم ، والحديث عنهم بسوء في غيبتهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(٣) يَأْتِيهَا

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٤) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤) ، عن عائشة ، والطبراني في الأوسط (٧٢٤٠) ،

وأبو يعلى (٦١٤٨) ، عن أبي هريرة . وحسنه ابن حجر في التلخيص الحبير (١٣١٥) .

وقال العراقي : سند جيد .

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢-١١﴾ (الحجرات ١٢-١١) .

● الوحدة من لوازم الإخاء :

ومن لوازم الأخوة ومظاهرها : الوحدة . ومما يضادها وينقضها : الفرقة .

فالمجتمع المسلم المتآخي مجتمع واحد في عقائده الإيمانية ، وفي شعائره التعبدية ، وفي مفاهيمه الفكرية ، وفي فضائله الأخلاقية ، وفي اتجاهاته النفسية ، وآدابه السلوكية ، وفي تقاليده الاجتماعية ، وفي قيمه الإنسانية ، وفي أسسه التشريعية .

واحد في أهدافه التي تصل الأرض بالسماء ، والدنيا بالآخرة ، والخلق بالخالق ، وفي أسس مناهجه التي تجمع بين المثالية والواقعية ، وتوازن بين الثبات والتطور ، وبين استلهام التراث والاستفادة من العصر .

واحد في مصادره التي يستمد منها هدايته ، وهي القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وفي المثل الأعلى الذي يستمد منه الأسوة الحسنة ، وهو الرسول الأعظم ﷺ .

فهو مجتمع يؤمن برب واحد ، وكتاب واحد ، ورسول واحد ، ويتجه إلى قبلة واحدة بشعائر واحدة ، ويحتكم في كل أموره إلى شريعة واحدة : وولأؤه - حيث كان - ولاء واحد ، لله ولرسوله ولأمة الإسلام . في الله يحب ، وفيه يغض ، وفيه يصل ، وفيه يقطع : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

(المجادلة ٢٢) .

لا ينبغي أن يفرق هذا المجتمع ما يفرق المجتمعات الأخرى من العصبية للجنس أو اللون ، أو الوطن أو اللغة ، أو الطبقة أو المذهب ، أو غير ذلك مما يميز الجماعات .

فالأخوة الإسلامية فوق كل العصبية أيًا كان اسمها ونوعها . والرسول الكريم - ﷺ - بريء من كل العصبية : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »^(١).

والقرآن يحذر من دسائس غير المسلمين الذي يكيدون لهم ليفرقوا كلمتهم ، ويمزقوا وحدتهم ، كما فعل ذلك اليهود في الإيقاع بين الأوس والخزرج بعد أن جمعهم الله على الإسلام : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۖ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۖ ﴾ (آل عمران ١٠٠-١٠١) إلى أن قال : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٣) .

وفي هذا السياق حذر من التفرق والاختلاف فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران ١٠٥) .

وبين آية الأمر بالاعتصام بحبل الله وآية التحذير من التفرق والاختلاف ، ذكرت آية تكليف الأمة بالدعوة والأمر والنهي : ﴿ وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٤) .

وهذا يدلنا على أن الذي يوحد الأمة ويجمع شتاتها : وجود منهج موحد تعتصم به وترجع إليه ، وهو هنا حبل الله : الإسلام والقرآن ، ووجود رسالة مشتركة تشغل بها ، وتجعلها أكبر همها ، وهي هنا الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥١٢١) ، والبخاري في شرح السنة (٣٥٤٣) ، وحسنه السيوطي في الصغير (٧٦٨٤) ، عن جبير بن مطعم .

أما إذا قعدت الأمة عن الرسالة ، أو فقدت المنهج ، فإن السبل ستتفرق بها عن يمين وشمال ، والشياطين ستتجاذبها من شرق وغرب ، وهو ما حذر منه القرآن بقوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَدَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام ١٥٣) .

والوحدة المفروضة في الأمة المسلمة لا تعارض التنوع الذي يقتضيه اختلاف البيئات والأعراف بتأثير الحضارات المختلفة ، والموراث الثقافية المتعددة . فهو تنوع في إطار الوحدة الجامعة ، وهو أشبه بتنوع المواهب والميول والأفكار والتخصصات ، داخل الأسرة الواحدة ، أو تنوع الأزهار والثمار داخل الحديقة الواحدة : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ (الرعد ٤) .

ومن أهم ما جاء به الإسلام هنا : شرعية تعدد الاجتهادات في إطار القواعد الكلية والنصوص القطعية المتفق عليها ، فلا يجوز أن ينكر مجتهد على مجتهد ، وإن اختلف معه في المشرب ، ولكل وجهته ، ولكل أجره ، أصاب أم أخطأ ، ما دام من أهل الاجتهاد ، واختلاف الآراء لا يجوز أن يكون سبب تفرق أو عداوة ، فقد اختلف الصحابة وتابعوهم بإحسان في قضايا كثيرة ، ولم يؤدهم ذلك إلى التفرق ، بل وسع بعضهم بعضاً ، وصلى بعضهم وراء بعض .

ومما يضيق الخلاف أن أمر الإمام أو حكم الحاكم في المسائل الخلافية يرفع الخلاف ، ويحسم النزاع من الناحية العملية .

● التعاون والتناصر والتراحم :

ومن لوازم الإخاء في الإسلام : التعاون والتراحم والتناصر ، إذ ما قيمة الأخوة إذا لم تعاون أخاك عند الحاجة ، وتنصره عند الشدة ، وترحمه عند الضعف ؟

لقد صور الرسول الكريم ﷺ مبلغ التعاون والترابط بين أبناء المجتمع المسلم بعضه وبعض هذا التصوير البليغ المعبر حين قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان ،

يشد بعضه بعضاً» ، وشبك بين أصابعه^(١) . فاللينة وحدها ضعيفة مهما تكن متانتها ، وآلاف اللبنة المبعثرة المتناثرة لا تصنع شيئاً ، ولا تكون بناءً . إنما يتكون البناء القوي من اللبنة المتماسكة المتراسة في صفوف منتظمة ، وفق قانون معلوم ، عندئذ يتكون من اللبنة جدار متين ، ومن مجموع الجدر بيت مكين ، يصعب أن تنال منه أيدي الهدامين .

كما صور مبلغ تراحم المجتمع وتكامله ، وتعاطف بعضه مع بعض بقوله : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »^(٢) ، فهو ترابط عضوي ، لا يستغني فيه جزء عن آخر ، ولا يفصل عنه ، ولا يحيا بدونه ، فلا يستغني الجهاز التنفسي عن الجهاز الهضمي ، أو كلاهما عن الجهاز الدموي أو العصبي ، فكل جزء متمم للآخر ، ويتعاون الأجزاء وتلاحمها يحيا الكل ، ويستمر نماؤه وعطاؤه .

ويقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم ، يرد مشدهم على مضعفهم ، ومسرعهم على قاعدهم »^(٣) .

وَيُدْخِلُ فِي نُصْرَةِ الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ عُنْصَرًا جَدِيدًا حِينَ يَقُولُ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » . قيل : نصره مظلوماً ، فكيف نصره ظالماً يا رسول الله؟ قال : « تأخذ فوق يديه ، أو تمنعه من الظلم فذلك نصر له »^(٤) .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الصلاة (٤٨١) ، ومسلم في البر والصلوة (٢٥٨٥) ، عن أبي موسى .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠١١) ، ومسلم في البر والصلوة (٢٥٨٦) ، عن النعمان بن بشير .

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٥١) ، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣) ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده .

(٤) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢) ، عن أنس .

والقرآن الكريم يوجب التعاون ويأمر به بشرط أن يكون تعاونًا على البر والتقوى، ويحرمه وينهى عنه إذا كان على الإثم والعدوان. يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة ٢).

ويجعل المؤمنين أولياء بعضهم على بعض، بمقتضى عقد الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة ٧١)، وهذا في مقابلة وصف مجتمع المنافقين بقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ (التوبة ٦٧).

كما وصف مجتمع الصحابة بأنهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح ٢٩)، فالتراحم سمة أولى من سمات المجتمع المسلم.

ومقتضى ذلك أن يشد القوي أزر الضعيف، وأن يأخذ الغني بيد الفقير، وأن ينير العالم الطريق للجاهل، وأن يرحم الكبير الصغير، كما يوقر الصغير الكبير، ويعرف الجاهل للعالم حقه، وأن يقف الجميع صفًا واحدًا، في الشدائد والمعارك العسكرية والسلمية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرَّضُونَ﴾ (الصف ٤).

وفي قصص القرآن صور حية للتعاون المثمر البناء.

من ذلك صور التعاون بين موسى وأخيه هارون، وقد سأل الله أن يشد به أزره في قيامه برسالته: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ه١ ه٢ ه٣ ه٤ ه٥ ه٦ ه٧ ه٨ ه٩ ه١٠ ه١١ ه١٢ ه١٣ ه١٤ ه١٥ ه١٦ ه١٧ ه١٨ ه١٩ ه٢٠ ه٢١ ه٢٢ ه٢٣ ه٢٤ ه٢٥ ه٢٦ ه٢٧ ه٢٨ ه٢٩ ه٣٠ ه٣١ ه٣٢ ه٣٣ ه٣٤ ه٣٥ ه٣٦ ه٣٧ ه٣٨ ه٣٩ ه٤٠ ه٤١ ه٤٢ ه٤٣ ه٤٤ ه٤٥ ه٤٦ ه٤٧ ه٤٨ ه٤٩ ه٥٠ ه٥١ ه٥٢ ه٥٣ ه٥٤ ه٥٥ ه٥٦ ه٥٧ ه٥٨ ه٥٩ ه٦٠ ه٦١ ه٦٢ ه٦٣ ه٦٤ ه٦٥ ه٦٦ ه٦٧ ه٦٨ ه٦٩ ه٧٠ ه٧١ ه٧٢ ه٧٣ ه٧٤ ه٧٥ ه٧٦ ه٧٧ ه٧٨ ه٧٩ ه٨٠ ه٨١ ه٨٢ ه٨٣ ه٨٤ ه٨٥ ه٨٦ ه٨٧ ه٨٨ ه٨٩ ه٩٠ ه٩١ ه٩٢ ه٩٣ ه٩٤ ه٩٥ ه٩٦ ه٩٧ ه٩٨ ه٩٩ ه١٠٠ ه١٠١ ه١٠٢ ه١٠٣ ه١٠٤ ه١٠٥ ه١٠٦ ه١٠٧ ه١٠٨ ه١٠٩ ه١١٠ ه١١١ ه١١٢ ه١١٣ ه١١٤ ه١١٥ ه١١٦ ه١١٧ ه١١٨ ه١١٩ ه١٢٠ ه١٢١ ه١٢٢ ه١٢٣ ه١٢٤ ه١٢٥ ه١٢٦ ه١٢٧ ه١٢٨ ه١٢٩ ه١٣٠ ه١٣١ ه١٣٢ ه١٣٣ ه١٣٤ ه١٣٥ ه١٣٦ ه١٣٧ ه١٣٨ ه١٣٩ ه١٤٠ ه١٤١ ه١٤٢ ه١٤٣ ه١٤٤ ه١٤٥ ه١٤٦ ه١٤٧ ه١٤٨ ه١٤٩ ه١٥٠ ه١٥١ ه١٥٢ ه١٥٣ ه١٥٤ ه١٥٥ ه١٥٦ ه١٥٧ ه١٥٨ ه١٥٩ ه١٦٠ ه١٦١ ه١٦٢ ه١٦٣ ه١٦٤ ه١٦٥ ه١٦٦ ه١٦٧ ه١٦٨ ه١٦٩ ه١٧٠ ه١٧١ ه١٧٢ ه١٧٣ ه١٧٤ ه١٧٥ ه١٧٦ ه١٧٧ ه١٧٨ ه١٧٩ ه١٨٠ ه١٨١ ه١٨٢ ه١٨٣ ه١٨٤ ه١٨٥ ه١٨٦ ه١٨٧ ه١٨٨ ه١٨٩ ه١٩٠ ه١٩١ ه١٩٢ ه١٩٣ ه١٩٤ ه١٩٥ ه١٩٦ ه١٩٧ ه١٩٨ ه١٩٩ ه٢٠٠ ه٢٠١ ه٢٠٢ ه٢٠٣ ه٢٠٤ ه٢٠٥ ه٢٠٦ ه٢٠٧ ه٢٠٨ ه٢٠٩ ه٢١٠ ه٢١١ ه٢١٢ ه٢١٣ ه٢١٤ ه٢١٥ ه٢١٦ ه٢١٧ ه٢١٨ ه٢١٩ ه٢٢٠ ه٢٢١ ه٢٢٢ ه٢٢٣ ه٢٢٤ ه٢٢٥ ه٢٢٦ ه٢٢٧ ه٢٢٨ ه٢٢٩ ه٢٣٠ ه٢٣١ ه٢٣٢ ه٢٣٣ ه٢٣٤ ه٢٣٥ ه٢٣٦ ه٢٣٧ ه٢٣٨ ه٢٣٩ ه٢٤٠ ه٢٤١ ه٢٤٢ ه٢٤٣ ه٢٤٤ ه٢٤٥ ه٢٤٦ ه٢٤٧ ه٢٤٨ ه٢٤٩ ه٢٥٠ ه٢٥١ ه٢٥٢ ه٢٥٣ ه٢٥٤ ه٢٥٥ ه٢٥٦ ه٢٥٧ ه٢٥٨ ه٢٥٩ ه٢٦٠ ه٢٦١ ه٢٦٢ ه٢٦٣ ه٢٦٤ ه٢٦٥ ه٢٦٦ ه٢٦٧ ه٢٦٨ ه٢٦٩ ه٢٧٠ ه٢٧١ ه٢٧٢ ه٢٧٣ ه٢٧٤ ه٢٧٥ ه٢٧٦ ه٢٧٧ ه٢٧٨ ه٢٧٩ ه٢٨٠ ه٢٨١ ه٢٨٢ ه٢٨٣ ه٢٨٤ ه٢٨٥ ه٢٨٦ ه٢٨٧ ه٢٨٨ ه٢٨٩ ه٢٩٠ ه٢٩١ ه٢٩٢ ه٢٩٣ ه٢٩٤ ه٢٩٥ ه٢٩٦ ه٢٩٧ ه٢٩٨ ه٢٩٩ ه٣٠٠ ه٣٠١ ه٣٠٢ ه٣٠٣ ه٣٠٤ ه٣٠٥ ه٣٠٦ ه٣٠٧ ه٣٠٨ ه٣٠٩ ه٣١٠ ه٣١١ ه٣١٢ ه٣١٣ ه٣١٤ ه٣١٥ ه٣١٦ ه٣١٧ ه٣١٨ ه٣١٩ ه٣٢٠ ه٣٢١ ه٣٢٢ ه٣٢٣ ه٣٢٤ ه٣٢٥ ه٣٢٦ ه٣٢٧ ه٣٢٨ ه٣٢٩ ه٣٣٠ ه٣٣١ ه٣٣٢ ه٣٣٣ ه٣٣٤ ه٣٣٥ ه٣٣٦ ه٣٣٧ ه٣٣٨ ه٣٣٩ ه٣٤٠ ه٣٤١ ه٣٤٢ ه٣٤٣ ه٣٤٤ ه٣٤٥ ه٣٤٦ ه٣٤٧ ه٣٤٨ ه٣٤٩ ه٣٥٠ ه٣٥١ ه٣٥٢ ه٣٥٣ ه٣٥٤ ه٣٥٥ ه٣٥٦ ه٣٥٧ ه٣٥٨ ه٣٥٩ ه٣٦٠ ه٣٦١ ه٣٦٢ ه٣٦٣ ه٣٦٤ ه٣٦٥ ه٣٦٦ ه٣٦٧ ه٣٦٨ ه٣٦٩ ه٣٧٠ ه٣٧١ ه٣٧٢ ه٣٧٣ ه٣٧٤ ه٣٧٥ ه٣٧٦ ه٣٧٧ ه٣٧٨ ه٣٧٩ ه٣٨٠ ه٣٨١ ه٣٨٢ ه٣٨٣ ه٣٨٤ ه٣٨٥ ه٣٨٦ ه٣٨٧ ه٣٨٨ ه٣٨٩ ه٣٩٠ ه٣٩١ ه٣٩٢ ه٣٩٣ ه٣٩٤ ه٣٩٥ ه٣٩٦ ه٣٩٧ ه٣٩٨ ه٣٩٩ ه٤٠٠ ه٤٠١ ه٤٠٢ ه٤٠٣ ه٤٠٤ ه٤٠٥ ه٤٠٦ ه٤٠٧ ه٤٠٨ ه٤٠٩ ه٤١٠ ه٤١١ ه٤١٢ ه٤١٣ ه٤١٤ ه٤١٥ ه٤١٦ ه٤١٧ ه٤١٨ ه٤١٩ ه٤٢٠ ه٤٢١ ه٤٢٢ ه٤٢٣ ه٤٢٤ ه٤٢٥ ه٤٢٦ ه٤٢٧ ه٤٢٨ ه٤٢٩ ه٤٣٠ ه٤٣١ ه٤٣٢ ه٤٣٣ ه٤٣٤ ه٤٣٥ ه٤٣٦ ه٤٣٧ ه٤٣٨ ه٤٣٩ ه٤٤٠ ه٤٤١ ه٤٤٢ ه٤٤٣ ه٤٤٤ ه٤٤٥ ه٤٤٦ ه٤٤٧ ه٤٤٨ ه٤٤٩ ه٤٥٠ ه٤٥١ ه٤٥٢ ه٤٥٣ ه٤٥٤ ه٤٥٥ ه٤٥٦ ه٤٥٧ ه٤٥٨ ه٤٥٩ ه٤٦٠ ه٤٦١ ه٤٦٢ ه٤٦٣ ه٤٦٤ ه٤٦٥ ه٤٦٦ ه٤٦٧ ه٤٦٨ ه٤٦٩ ه٤٧٠ ه٤٧١ ه٤٧٢ ه٤٧٣ ه٤٧٤ ه٤٧٥ ه٤٧٦ ه٤٧٧ ه٤٧٨ ه٤٧٩ ه٤٨٠ ه٤٨١ ه٤٨٢ ه٤٨٣ ه٤٨٤ ه٤٨٥ ه٤٨٦ ه٤٨٧ ه٤٨٨ ه٤٨٩ ه٤٩٠ ه٤٩١ ه٤٩٢ ه٤٩٣ ه٤٩٤ ه٤٩٥ ه٤٩٦ ه٤٩٧ ه٤٩٨ ه٤٩٩ ه٥٠٠ ه٥٠١ ه٥٠٢ ه٥٠٣ ه٥٠٤ ه٥٠٥ ه٥٠٦ ه٥٠٧ ه٥٠٨ ه٥٠٩ ه٥١٠ ه٥١١ ه٥١٢ ه٥١٣ ه٥١٤ ه٥١٥ ه٥١٦ ه٥١٧ ه٥١٨ ه٥١٩ ه٥٢٠ ه٥٢١ ه٥٢٢ ه٥٢٣ ه٥٢٤ ه٥٢٥ ه٥٢٦ ه٥٢٧ ه٥٢٨ ه٥٢٩ ه٥٣٠ ه٥٣١ ه٥٣٢ ه٥٣٣ ه٥٣٤ ه٥٣٥ ه٥٣٦ ه٥٣٧ ه٥٣٨ ه٥٣٩ ه٥٤٠ ه٥٤١ ه٥٤٢ ه٥٤٣ ه٥٤٤ ه٥٤٥ ه٥٤٦ ه٥٤٧ ه٥٤٨ ه٥٤٩ ه٥٥٠ ه٥٥١ ه٥٥٢ ه٥٥٣ ه٥٥٤ ه٥٥٥ ه٥٥٦ ه٥٥٧ ه٥٥٨ ه٥٥٩ ه٥٦٠ ه٥٦١ ه٥٦٢ ه٥٦٣ ه٥٦٤ ه٥٦٥ ه٥٦٦ ه٥٦٧ ه٥٦٨ ه٥٦٩ ه٥٧٠ ه٥٧١ ه٥٧٢ ه٥٧٣ ه٥٧٤ ه٥٧٥ ه٥٧٦ ه٥٧٧ ه٥٧٨ ه٥٧٩ ه٥٨٠ ه٥٨١ ه٥٨٢ ه٥٨٣ ه٥٨٤ ه٥٨٥ ه٥٨٦ ه٥٨٧ ه٥٨٨ ه٥٨٩ ه٥٩٠ ه٥٩١ ه٥٩٢ ه٥٩٣ ه٥٩٤ ه٥٩٥ ه٥٩٦ ه٥٩٧ ه٥٩٨ ه٥٩٩ ه٦٠٠ ه٦٠١ ه٦٠٢ ه٦٠٣ ه٦٠٤ ه٦٠٥ ه٦٠٦ ه٦٠٧ ه٦٠٨ ه٦٠٩ ه٦١٠ ه٦١١ ه٦١٢ ه٦١٣ ه٦١٤ ه٦١٥ ه٦١٦ ه٦١٧ ه٦١٨ ه٦١٩ ه٦٢٠ ه٦٢١ ه٦٢٢ ه٦٢٣ ه٦٢٤ ه٦٢٥ ه٦٢٦ ه٦٢٧ ه٦٢٨ ه٦٢٩ ه٦٣٠ ه٦٣١ ه٦٣٢ ه٦٣٣ ه٦٣٤ ه٦٣٥ ه٦٣٦ ه٦٣٧ ه٦٣٨ ه٦٣٩ ه٦٤٠ ه٦٤١ ه٦٤٢ ه٦٤٣ ه٦٤٤ ه٦٤٥ ه٦٤٦ ه٦٤٧ ه٦٤٨ ه٦٤٩ ه٦٥٠ ه٦٥١ ه٦٥٢ ه٦٥٣ ه٦٥٤ ه٦٥٥ ه٦٥٦ ه٦٥٧ ه٦٥٨ ه٦٥٩ ه٦٦٠ ه٦٦١ ه٦٦٢ ه٦٦٣ ه٦٦٤ ه٦٦٥ ه٦٦٦ ه٦٦٧ ه٦٦٨ ه٦٦٩ ه٦٧٠ ه٦٧١ ه٦٧٢ ه٦٧٣ ه٦٧٤ ه٦٧٥ ه٦٧٦ ه٦٧٧ ه٦٧٨ ه٦٧٩ ه٦٨٠ ه٦٨١ ه٦٨٢ ه٦٨٣ ه٦٨٤ ه٦٨٥ ه٦٨٦ ه٦٨٧ ه٦٨٨ ه٦٨٩ ه٦٩٠ ه٦٩١ ه٦٩٢ ه٦٩٣ ه٦٩٤ ه٦٩٥ ه٦٩٦ ه٦٩٧ ه٦٩٨ ه٦٩٩ ه٧٠٠ ه٧٠١ ه٧٠٢ ه٧٠٣ ه٧٠٤ ه٧٠٥ ه٧٠٦ ه٧٠٧ ه٧٠٨ ه٧٠٩ ه٧١٠ ه٧١١ ه٧١٢ ه٧١٣ ه٧١٤ ه٧١٥ ه٧١٦ ه٧١٧ ه٧١٨ ه٧١٩ ه٧٢٠ ه٧٢١ ه٧٢٢ ه٧٢٣ ه٧٢٤ ه٧٢٥ ه٧٢٦ ه٧٢٧ ه٧٢٨ ه٧٢٩ ه٧٣٠ ه٧٣١ ه٧٣٢ ه٧٣٣ ه٧٣٤ ه٧٣٥ ه٧٣٦ ه٧٣٧ ه٧٣٨ ه٧٣٩ ه٧٤٠ ه٧٤١ ه٧٤٢ ه٧٤٣ ه٧٤٤ ه٧٤٥ ه٧٤٦ ه٧٤٧ ه٧٤٨ ه٧٤٩ ه٧٥٠ ه٧٥١ ه٧٥٢ ه٧٥٣ ه٧٥٤ ه٧٥٥ ه٧٥٦ ه٧٥٧ ه٧٥٨ ه٧٥٩ ه٧٦٠ ه٧٦١ ه٧٦٢ ه٧٦٣ ه٧٦٤ ه٧٦٥ ه٧٦٦ ه٧٦٧ ه٧٦٨ ه٧٦٩ ه٧٧٠ ه٧٧١ ه٧٧٢ ه٧٧٣ ه٧٧٤ ه٧٧٥ ه٧٧٦ ه٧٧٧ ه٧٧٨ ه٧٧٩ ه٧٨٠ ه٧٨١ ه٧٨٢ ه٧٨٣ ه٧٨٤ ه٧٨٥ ه٧٨٦ ه٧٨٧ ه٧٨٨ ه٧٨٩ ه٧٩٠ ه٧٩١ ه٧٩٢ ه٧٩٣ ه٧٩٤ ه٧٩٥ ه٧٩٦ ه٧٩٧ ه٧٩٨ ه٧٩٩ ه٨٠٠ ه٨٠١ ه٨٠٢ ه٨٠٣ ه٨٠٤ ه٨٠٥ ه٨٠٦ ه٨٠٧ ه٨٠٨ ه٨٠٩ ه٨١٠ ه٨١١ ه٨١٢ ه٨١٣ ه٨١٤ ه٨١٥ ه٨١٦ ه٨١٧ ه٨١٨ ه٨١٩ ه٨٢٠ ه٨٢١ ه٨٢٢ ه٨٢٣ ه٨٢٤ ه٨٢٥ ه٨٢٦ ه٨٢٧ ه٨٢٨ ه٨٢٩ ه٨٣٠ ه٨٣١ ه٨٣٢ ه٨٣٣ ه٨٣٤ ه٨٣٥ ه٨٣٦ ه٨٣٧ ه٨٣٨ ه٨٣٩ ه٨٤٠ ه٨٤١ ه٨٤٢ ه٨٤٣ ه٨٤٤ ه٨٤٥ ه٨٤٦ ه٨٤٧ ه٨٤٨ ه٨٤٩ ه٨٥٠ ه٨٥١ ه٨٥٢ ه٨٥٣ ه٨٥٤ ه٨٥٥ ه٨٥٦ ه٨٥٧ ه٨٥٨ ه٨٥٩ ه٨٦٠ ه٨٦١ ه٨٦٢ ه٨٦٣ ه٨٦٤ ه٨٦٥ ه٨٦٦ ه٨٦٧ ه٨٦٨ ه٨٦٩ ه٨٧٠ ه٨٧١ ه٨٧٢ ه٨٧٣ ه٨٧٤ ه٨٧٥ ه٨٧٦ ه٨٧٧ ه٨٧٨ ه٨٧٩ ه٨٨٠ ه٨٨١ ه٨٨٢ ه٨٨٣ ه٨٨٤ ه٨٨٥ ه٨٨٦ ه٨٨٧ ه٨٨٨ ه٨٨٩ ه٨٩٠ ه٨٩١ ه٨٩٢ ه٨٩٣ ه٨٩٤ ه٨٩٥ ه٨٩٦ ه٨٩٧ ه٨٩٨ ه٨٩٩ ه٩٠٠ ه٩٠١ ه٩٠٢ ه٩٠٣ ه٩٠٤ ه٩٠٥ ه٩٠٦ ه٩٠٧ ه٩٠٨ ه٩٠٩ ه٩١٠ ه٩١١ ه٩١٢ ه٩١٣ ه٩١٤ ه٩١٥ ه٩١٦ ه٩١٧ ه٩١٨ ه٩١٩ ه٩٢٠ ه٩٢١ ه٩٢٢ ه٩٢٣ ه٩٢٤ ه٩٢٥ ه٩٢٦ ه٩٢٧ ه٩٢٨ ه٩٢٩ ه٩٣٠ ه٩٣١ ه٩٣٢ ه٩٣٣ ه٩٣٤ ه٩٣٥ ه٩٣٦ ه٩٣٧ ه٩٣٨ ه٩٣٩ ه٩٤٠ ه٩٤١ ه٩٤٢ ه٩٤٣ ه٩٤٤ ه٩٤٥ ه٩٤٦ ه٩٤٧ ه٩٤٨ ه٩٤٩ ه٩٥٠ ه٩٥١ ه٩٥٢ ه٩٥٣ ه٩٥٤ ه٩٥٥ ه٩٥٦ ه٩٥٧ ه٩٥٨ ه٩٥٩ ه٩٦٠ ه٩٦١ ه٩٦٢ ه٩٦٣ ه٩٦٤ ه٩٦٥ ه٩٦٦ ه٩٦٧ ه٩٦٨ ه٩٦٩ ه٩٧٠ ه٩٧١ ه٩٧٢ ه٩٧٣ ه٩٧٤ ه٩٧٥ ه٩٧٦ ه٩٧٧ ه٩٧٨ ه٩٧٩ ه٩٨٠ ه٩٨١ ه٩٨٢ ه٩٨٣ ه٩٨٤ ه٩٨٥ ه٩٨٦ ه٩٨٧ ه٩٨٨ ه٩٨٩ ه٩٩٠ ه٩٩١ ه٩٩٢ ه٩٩٣ ه٩٩٤ ه٩٩٥ ه٩٩٦ ه٩٩٧ ه٩٩٨ ه٩٩٩

وكان الجواب الإلهي: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾

(القصص ٣٥).

وبهذا كان هارون يعاون أخاه موسى في حضرته، ويخلفه على قومه في غيبته. ومن صور التعاون ما قصّه علينا القرآن من إقامة سد ذي القرنين العظيم، ليقف

حاجزاً ضد هجمات يأجوج ومأجوج ، المفسدين في الأرض . وكان ثمرة للتعاون بين الحاكم الصالح والشعب الخائف منبغي الأقوياء عليه : ﴿ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِنِ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ ١ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٢ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ٣ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ٤ (الكهف ٩٤-٩٧) .

• التكافل المادي والأدبي :

ومن مظاهر هذا التعاون والتراحم والتناصر : التكافل بين أبناء المجتمع المسلم ، وهو تكافل مادي ومعنوي ، اقتصادي وسياسي ، عسكري ومدني ، اجتماعي وثقافي .

يبدأ هذا التكافل بين الأقارب بعضهم وبعض ، كما يفصل ذلك نظام النفقات في شريعة الإسلام . فالقريب الموسر ينفق على قريبة المعسر وفق شروط وأحكام مفصلة في الفقه الإسلامي ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (الأنفال ٧٥) .

ثم تتسع دائرة هذا التكافل لتشمل الجيران وأبناء الحي الواحد في البلد الواحد ، بمقتضى حق الجوار ، الذي أكدته الإسلام ، وفي الحديث : « ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع » ^(١) .

وروي : « أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع ، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله » ^(٢) .

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢) ، والطبراني في الكبير (١٢٧٤١) ، وصححه الحاكم في البر والصلة (٧٣٠٧) ، ووافقه الذهبي ، عن ابن عباس .

(٢) رواه أحمد (٤٨٨٠) ، والبزار (٥٣٧٨) ، وأبو يعلى (٥٧٤٦) ، والحديث فيه مقال .

ثم تتسع أكثر وأكثر بحيث تشمل الإقليم عن طريق الزكاة ، التي أمر الرسول الكريم ﷺ أن تؤخذ من أغنياء كل إقليم لتُرد على فقرائه ، فوضع بذلك أساس التوزيع المحلي ، على عكس ما كان يصنع في الحضارات السابقة على الإسلام ، فقد كانت الضرائب تؤخذ من مزارعي ومحترفي الأقاليم النائية والقرى البعيدة ، لتوزع في المدن الكبيرة ، ولا سيما عاصمة الملك أو الإمبراطور .

ثم تزداد اتساعاً ليشمل التكافل المجتمع كله .

ومنذ فجر الدعوة إلى الإسلام في مكة ، والمسلمون أفراد معدودون مضطهدون ، ليس لهم كيان ولا سلطان ، كان القرآن يدعو بقوة إلى هذا التكافل بجعل المجتمع كالأسرة الواحدة ، يصب الواحد فيه على المحروم ، ويحمل فيه الغني الفقير .

ولم يجعل القرآن ذلك شيئاً من نوافل الدين ، يقوم به من ترقى في درجات الإيمان والإحسان ، ولا يطالب به الشخص العادي من الناس .

بل اعتبره القرآن أمراً أساسياً من دعائم الدين ، لا يحظى برضا الله من لم يقم به ، ولا ينجو من عذابه من فرط فيه .

اقرأ في السور المكية مثل هذه الآيات : ﴿ فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكُ رَقَبَةً ۚ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۚ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۚ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۚ ﴾ (البلد ١١-١٧) .

وقوله تعالى في سورة أخرى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ۚ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۚ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۚ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۚ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ۚ ﴾ (المدثر ٣٨-٤٤) .

فجعل مصيرهم النار : لأنهم أضاعوا حق الله بإضاعة الصلاة ، وأضاعوا حق عباده ، إذ لم يطعموا المسكين .

وإطعام المسكين كناية عن رعاية ضروراته وحاجاته ، إذ لا معنى لأن نطعم المسكين وندعه مشرداً بلا مأوى ، أو عرياناً بلا كسوة ، أو مريضاً بلا علاج .

ولم يكتفِ القرآن بإيجاب إطعام المسكين ، بل زاد على ذلك فأوجب الحض على إطعامه ، والحث على رعايته ، وجعل إهمال ذلك من دلائل الكفر والتكذيب بالدين : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا تَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ (الماعون ١-٣) .

ويجعل ذلك مع الكفر بالله من موجبات العذاب الأليم ، واصطلاء الجحيم . فيقول في شأن أصحاب الشمال ممن أطعاه ماله وسلطانه ، فلم يغن عنه من الله شيئاً : ﴿ خَذُوهُ فَعْلُوهُ ﴿٣﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٤﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة ٣٠-٣٢) ، ثم يذكر أسباب هذا الحكم الشديد ، فيقول : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٥﴾ وَلَا تَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ (الحاقة ٣٣-٣٤) .

ويزيد على ذلك فيوجب في المال حقاً معلوماً ، ليس بصدقة تطوعية ، ولا بإحسان اختياري ، مَنْ شاء أذاه ، وَمَنْ شاء تركه ، بل (حق) : أي (دَيْن) - في عنق المكلفين ، وحق معلوم غير مجهول ، كما في قوله تعالى في وصف المتقين : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (الذاريات ١٩) .

وفي سورة أخرى يصف الحق بالمعلومية فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٦﴾ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (المعارج ٢٤-٢٥) .

وفي الحديث عن الزروع والثمار ، والجنات المعروشات وغير المعروشات ، يقول سبحانه : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ (الأنعام ١٤١) .

وهذا الحق هو الزكاة ، التي فرضت في مكة غير محددة ولا مفصلة .

كل هذا في القرآن المكي ، فلما أصبح للمسلمين دولة وسلطان ، حددت أنصبة الزكاة ومقاديرها بوضوح ، وبعث السعاة ليجمعوها من أهلها ، ويصرفوها في محلها . وهم الذين ساهم القرآن : (العاملين عليها) ، وجعل لهم نصيباً من حصيلة الزكاة نفسها ، ضماناً لحسن تحصيلها وتوزيعها . ووصل الإسلام بهذه الفريضة المالية إلى أعلى درجات الإلزام الخلقي والتشريعي ، فجعلها ثالث أركان

الإسلام، وأوجب أخذها كرهاً، إن لم تُدفع طوعاً، ولم يتردد في قتال مَنْ منعوها، إذا كانوا ذوي شوكة وقوة .

وهذا التكافل المادي أو المعيشي ليس هو كل ما طلبه الإسلام في هذا المجال ، بل هناك أنواع أخرى من التكافل ، ذكرها العلامة الفقيه الداعية الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - وجعلها بالتكافل المعيشي عشرة كاملة^(١) ، فشملت : التكافل الأدبي ، والعلمي ، والسياسي ، والدفاعي ، والجنائي ، والأخلاقي ، والاقتصادي ، والعبادي ، والحضاري ، والمعاشي ، الذي اختص اليوم باسم (التكافل الاجتماعي).

● أخوة لكل الفئات بلا طبقية :

الأخوة في الإسلام تشمل كل فئات المجتمع ، فليس هناك فئة من الناس أعلى من أن تؤاخي الآخرين ، ولا فئة أهون من أن يؤاخيها الآخرون ، لا يجوز أن يكون المال أو المنصب أو النسب ، أو أي وضع اجتماعي أو مادي أو غير مادي ؛ سبباً لاستعلاء بعض الناس على بعض .

فالحاكم أخو المحكوم ، والراعي أخ لرعيته ، وفي الحديث : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم (أي تدعون لهم ، ويدعون لكم) ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم »^(٢) .

والسيد أخ لعبده ، وإن أوجبت ظروف خاصة أن يكون تحت يده . وفي الصحيح : « إخوانكم خولكم (أي خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »^(٣) .

(١) تراجع في كتابه (اشتراكية الإسلام) ص ١١٢-١١٦ .

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٥) ، عن عوف بن مالك .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٣٠) ، ومسلم في الإيمان (١٦٦١) ، عن أبي ذر .

والأغنياء والفقراء ، والعمال وأرباب العمل ، والملاك والمستأجرون ، كلهم أخوة بعضهم لبعض ، فلا مجال - في ضوء تعاليم الإسلام - لصراع اجتماعي ، أو حقد طبقي .

بل لا يوجد في المجتمع الإسلامي طبقات ، كما عُرِفَ ذلك في المجتمع الغربي في العصور الوسطى ، الذي عرف طبقات النبلاء والفرسان ، ورجال الدين وغيرهم ، وكانت هذه الطبقة تتوارث ، بحكم القيم والتقاليد والقوانين السائدة . ولا زال بعض الأمم إلى اليوم يتوارث الطبقة بحكم عقائده وأعرافه وأنظمتها ، كما في الهند .

يوجد في الإسلام أغنياء ، ولكنهم لا يكونون طبقة تتوارث الغنى ، بل هم أفراد يجري عليهم ما يجري على غيرهم ، فالغني قد يفتقر ، كما أن الفقير قد يغتنى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح ٥) .

ويوجد في الإسلام (علماء دين) ولكنهم لا يكونون طبقة تتوارث هذه المهنة ، بل هي وظيفة مفتوحة لكل من حصل مؤهلاتها من العلم والدراسة ، وهي على كل حال ليست وظيفة كهنوتية ، كوظائف القسس ورجال الدين في الأديان الأخرى ، إنما هي وظيفة تعليم ودعوة وإفتاء . فهم (علماء) لا (كهنة)!

وإذا كان الله تعالى يخاطب رسوله ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ (الغاشية ٢١-٢٢) ، ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق ٤٥) ، فكيف بورثته من العلماء؟ إنهم لن يكونوا - قطعاً - مسيطرين ، ولا جبارين على الناس . إنما هم معلّمون ومذكّرون .

* * *

O
B
E
I
K
A
N
.
C
O
M